بدر الديب

الأصل والفراق

مسرحيـــة

يدخل الابن الى المقبرة الواسعة ونراه يخطو باحثا عن امه ، وهي جالسة عند القبر ، بيضاء صغيرة في جلابيبها السود لا تكاد ان تحس ان فيها ملاء او ان لها جسما .

والسماء من ورائها زرقاء واسعة فيها غروب خفيف كدموع العين ، وليس في المقبرة احد .

الام امامها سلة صغيرة فيها اقراص من افراص الرحمة و« شوريك » (1) وبين حين وحين يحط عند اقدامها غراب .

والشاب يخب في جلباب من صوف وعلى رأسه طاقية صغيرة وتحت ابطه عود ضخم من شجرة .

الابن : اما آن ان نعود ؟

الام : هيه ؟

الابن : اما آن ان نعود ؟

الام : لقد كنت اقول له ذلك ، في كل عصر ،عند رأس الحقل .

الابن : اما آن ان نعود ؟

الام : وهل اذا عدنا يعود ؟

الابن : اما آن ان نعود (ضجرا) ؟

الام : لقد قال لك ارفق بامك .

الابن : امي ،هيا ، هيا نعود .

الام : انا لا استطيع ان اقوم ،

ان اعود ،
ان اذهب الى البيت الواسع الكبير
فلا يسعل فيه ولا اسمع خطوه ودعاءه الشاتم ،
ان اعود
وحدي للظلمة وللبيت الواسع وجدرانه الطين ،
لقد تخلل الطين تراب وجفاف ،
وقد اكله الجفاف والتراب
ان رجلي يرقد ويسرى فيه التراب ،
اما زلنا في التحاريق ،
ان المياه تنسحب في الترع ، والتراب يغطي وجهه وبدنه ،
ما اشق التراب ، كالعرق الجاف ،لا نور ولا رخاوة .

الابن : لقد قلت لك هيا ، هيا نعود (بعنف)

الام : ما اشد حرصك على الاشياء ،

على الطرقات والبيوت المقامة ،
يا ابني ، انا وانت ،
لم يعد ما تحويه الجدران لنا ،
لقد مات عنا الليل ووئد في حلقنا النهار .
ان شعاع الشمس لا يسقط لنا على مياه .
ولم يعد يسقط علينا بلح ،
ان حقنا اكله التراب
اما زلت قادرا على المسير في الطرقات ؟ ..

الابن : امي ، الن نعود ؟ (في ضراعة خائفة)

الام : يا ابني انت ما بقي لي من حياة ،
لقد اغلقتك عليّ كالباب الكبير ،
ولم اعد ارى وجهك .
انت كبير ، كبير لانك حي .

الابن : امي ، لا تجعليني احس انني منه .

الام : لقد قال لي ذات يوم « انه ابني ،ليس لك فيه شيء » ي .
انا اذكر ذلك ، فلقد حزنت وطرحت جنيني من بعدك .
ولكنني لا اغضب اليوم من ذلك ، انا اتكسر على حديثه اسى
كسور الحقل تحنيه السنون .

الابن : ولكن ماذا وراء ذلك ؟
الـن نعـود ؟

الام : انا وراءه ، انت باب وانا حياتك .
ليس لك طريق الا عيوني المنكسرة لا تعكس شيئا .
لقد لبست لك الجلابيب السود
خوضني ، لا ، لا تخوضني ،
انا ارض بور مروية ليس فيها الا وحل وجذور غرستها الاقدام

الابن : امي ، لقد عزاني امام المسجد ، وانت قد صنعت الرحمة
وعلى روحه قرانا القرآن
وجاءنا العمدة في الليل ، وكل الناس
وخرجت الى بيتنا الصواني وتاخر الليل وانفض الناس ،
قومي ، الا نعود (ضارعا) .

الام : نعود ، نعـود ،
كما يقرأ القرآن على كل ميت وكما يخرج العمدة وراء كل صندوق.
لا لن اعود ،
لقد بت حتى الخميس اتقلب في الظلم كرغيف يحترق ،
وصنعنا له الرحمة ودفنتني النسوان ،
ولكني لا استطيع ان ادفع له شيئا ،
لقد بعد عن يدي ،

---

(1) نوع من الشطائر ، تحشى بالبلح او مطبوخ العسل او الجبن في ريف مصر .

نعم انظر ، يـدي
انت لك عيون ، وانا لي يد ،
وليس له عيون وليس له يد ،
ان الناس ياكلون لـه الرحمـة
لقد ملأ فمه التراب وتحجر في عيونه العظم .
لقد ضاع منـا وابتعـد
كالطريق الخشن الجاف .
يا ضيعـة ما كان لنا من نور وقوة في الساق

(عبر في طرف المقبرة رجل يسحب بقرتيـن
ويذهب ناحيـة الغروب)

لقد داس قبره البقـر
وغربت الشمس دون ان تنظر اليه
كان قويا منصوبا كهذا الفلاح البعيد ،
وانحدر الينا ذات مساء وطلب يدي،
يدي ، انظـر ،
واخذني اليه ، واقام بئرا في الفناء ،واحضرت حول البئر الحقول
مـع السنيـن ،
ثم حمله الناس في صندوق وتركك لـي ،
ولكنك له ، لست لي (في حيرة واقعة)
(يقدم عليهم من زاويـة الفلاح الحفار في جنبـاب
ابيض خفيف وهو رجل فـي الاربعين قوي متين
فيـه نبـل وصحـة)

الابن : قلت كفى هذرا وهيا نعود ،
اسحبك الى البيـت
انك حمقاء ، خرفـة ،
اجننت (يحاول ان يسحبها بالقوة من جلستها ولكنها تسقط
من يده كالثيـاب الفارغـة)
هيا ، هيا ، هيا يا امراة .
(للحفار) : لقد جنت ، انهـا لا تريد ان تغادر القبر (يصبح
الحفار قريبـا منهـم)
الام : جننت ، (تستمر)
كشبابيك العمدة الملونة والشمس الحمراء وراء التلال
لقد اقتلعوا النخل وغمسوا رؤوسه في الابار
وشيخ الخفر يصطاد البلح (تضحك)
وانا وضعته في الصندوق مع حلى فلبس الخلخال واختنق .
الحفار : (في صوت فاهم)
اسمعي يا امراة ، دعي العند واسالي نفسك
الا يمكنك ان تقومي .
الام : يمكنني .. ان ارى يدي .
الابن : (للحفار) ساتركها لك ، انت اقدر عليها
(ويسير ناحية القرية منحدرا)
الام : (صارخـة وراءه)
قل للناس انني جننت
وقل لهم ان يسرعوا الى هنا فقد اغرقت حقولهم المياه .
اسمع (محذرة للحفار)
(ثم تعوّل) انت تسمع وهو ينظر وانا هنا جالسة .
الحفار : ساجلس انا ايضا الى جانبك .
الام : أولا تذهب الى القريـة .
الحفار : (بغموض) لا ..
الام : (تساله في عجب وقد اصابتها خفة)
او تجلس هنـا ،
الحفار : نعم ... (باسما في هدوء)
الام : الى جانبـي .
الحفار : نعـم ..
الام : ماذا تريـد ؟
الحفار : لا شيء .
الام : قل لي ، هل تحرك وانتم تضعونه في القبر ؟.
الحفار : لقد رايت انت كل شيء .
الام : ولكنك لمست جسمه، اكان دافئا ؟
الحفار : نعـم ..
الام : كالفرخه المذبوحـة ..!
الحفار : لا .. ككل ميت (وهو مطرق الى الارض)
الام : (تسأله كطفلة) لماذا يظل الميت دافئا ؟.
الحفار : (يجيب من الارض) لان اهله حزانى عليه .
الام : (مقررة) انا اهل الميت .
لقد قالـوا لـي ان حزنـي عليه لا ينفـع .
الحفار : هل قالوا لك ذلـك ؟
الام : وقالوا انني ابكي على ميـت
وان الحزن كالقرآن خالـد في الكلمـات
الحفار : ولهذا تندبيـن ...
الام : انت تعلم ، انـا لا اندب
بل ابكي هذا السور الذي كشفني للناس
وحط في عيوني حجرا ومشاهد
الحفار : لقد قلت للناس بعد كل ميت
عظم الله اجركـم
ولا استطيع ان ادعو الله ان يؤجرك على وفاته .
فلقد اغرقت الاجر بحدوث المصيبة .
الام : لقد قلت للبحار لا تفتح القناطر
ولكنه اغرق الحقول وتركني ازرع الارز بلا عيدان ،
انا في المياه اخوض قد كشفت عن ساقي ووجهي
ليس لي قنـاع ولا رجل .
الحفار : اسمعي ، ليس للارز ميعـاد ،
انه يندفع في المياه وفي صور الكارثة ..
الام : لقد تركت الحصاد لابنـي
ولا اراه الا خائضا في الماء يمسك النجوم ويحلم بالبلح ..
الحفار : اسمعي (مكررا يريد ان يقول شيئا غير ما كان يريد) لقـد
قلت لابنك أن يتزوج .
الام : (لم تسمعه ـ مكررة مـا تريـد ان تقول)
انا لا اراه الا خائفا في الماء يمسك النجوم ويحلم بالبلح .
الحفار : (لقد ابتعد عنه مـا يريد ان يقوله) آه
ان صور الناس اقسى عليّ من الجثث والقبور
لقد اصبحت في خوف من حركة الناس ،
خوف عليهم ، من الطرقات والنخل والترع .
الام : (في حزن معروف) نعم ، يا اخي ، لقد اصبحت اخاف منهم
ومن الجدران .
الحفار : انت تعرفين ان ابنك ذاهب الى البقال ،
في الغرفة الضيقة وراء المحل ،
يشرب الحشيش في الحلقة ..
الام : ان القبر قد اكل دنياي واحاط محيطي بالشواهد ،
وانا لا اذكر من ابني الا التراب في ذراع ابيه ..
الحفار : عظم الله اجرك ..
الام : نعم يا اخي، ان اجري في زوجي كبيـر
الحفار : لقد فقدت ابنـك..
الام : لقد ادركني الموت على حواف حيانـي

كاعشاب الترع الحادة ،
فالسحالى السريعة تبرق في العشب بين الموت والحياة ،
جفاف ، وحدة وبريق الماء (مادة من نفسها في عيون الكثير من الناس .

الحفار : لقد حدث لك حادث غريب (حزينا)

الام : الغريب (مستقلة بنفسها) انني استطيع ان اقوم وان اعود
وان اسير بين المقابر حتى الترعة والجدران .

الحفار : لا ، لن تقومي ،حتى اقول لك ما اريد .
لقد قدمت وفي يدي ان احفر في نفسك شيئا
ولكني لا استطيع ان اسير على هذه الغرابة ،
بين حدود الموت والحياة .
ان ما حدث لي هو ما اريد ان اقوله ،
ولكني احس الماضي يملأ ما اقول وضوحا وجمودا ،
وسحاليك تنسحب مسرعة في مسالك عيونك

الام : لقد استطعت ان ادرك طبيعة الارض
وان ادرك ما بين التراب والماء من فارق ،
لقد استطعت ان اشتري ارضا من التراب والماء
وان اقيم فيها بمفردي بلا جدران .

الحفار : لو استطعت ان اقيم لك بيتا
او ان احميك بما اعرف ،
لو استطعت ان اصنع لك طعام الحق
وان اعجن لك خبزا كخدود البنات .
ولكني لا أكاد اقول ،
فلا استطيع ان احمل نفسي عليك
والمرء ان مر في الحياة بالطرقات الغريبة
لا يكاد ان يقدر على الحديث
امام الحدث الجامد والدموع في العيون
وان الفخر والتعالى ، والقص والعظة
ابعاد من الفاجعة ،
بعيدة عنها ...
نعم بعيدة عنها ...

(يدخل الفلاح بلا بقر)

(الى الفلاح)
الى اين ؟

الفلاح : الى البقال ..

الام : ابني هناك ، قل له انني لم اعد

الحفار : لا ، اسمع (مصرا)
لن تذهب ،اسمع انت لك اذن
وانت بسيط من الناس
قادر ان تنصح
هل تعرف كيف تلقى الناس
وكيف تسمع عنهم ،

الفلاح : هيا ..! (مستغربا مصيخا)

الحفار : في كل نفس ترعة ، وعند اخر الترعة ، بركة ،
قد يغطيها الناموس ، او يشتد فيها النخل والشمس
وعلى البركة عيون كالسحالى لا تعرف الماء
او كالسمك لا تعرف غيره .

الفلاح : نعم ، هذا صحيح فانا احيانا احب ان اصطاد السمك

الام : لا ، ليس السمك ...

الحفار : اختي ،.... (مدركا)

الام : ان لوعتي اطول من الترعة واكبر من البركة
وليس فيها ناموس ، وليس فيها سمك
ولكنها الزرقة ، لقد اكلت قلبي وعيوني ،
بين السماء والماء
ما اشد الاشياء والعناصر ،
اذا ابتعدت عنك (للحفار)

الحفار : (اخيرا)
في يوم من الايام ،
بعد ان دفنت ابي ، والشيخة وابن العمدة ،
في ذلك اليوم الذي جاء فيه المدير
كنت هنا ارقب ما في داخل القبر
واتذكر في نفسي ما رأيت من عيون مغمضة ،
واقول لك الحق ، يا اختي (متجها للفلاح)
لقد احسست في روحي تجمد الفقرات في الاصابع
واغماضة الجفن المريرة ، بلا عند ولا قصد ،
وقلت لنفسي ، ما اغرب مالي من حركة
وحركت اهدابي سريعا ولكن عيني لم تفتح ،
ورفعت ذراعي (يمثل ذلك) وخطوت بقدمي
ولكني لم اخط ولم اضرب في الهواء شيئا ،
واحسست اني احمل دولاب امي الكبير ،
وانني انزل الى قبر امي الواسع
اخطو على عظم وقماش واتحسس بيدي رطوبة الجدران
وعندما وصلت حيث وضعت ابي ،
وضعت الدولاب الكبير وفتحته
واطلت منه امي العجوز ، بعيونها البيضاء
ورأيت فيها فروعا من دم احمر .
وقال لي ابي ، يا بني لا تك عصيا ..
انت تعرف ما في القبر
وما زلت ضالا بلا انف على الارض .
فقلت له ، يا ابي ..

الفلاح : (مقاطعا) أكان ميتا (في بلاهة) ؟! ..

الحفار : (مكملا) كل ما قلت (للام)

(صمت)

ولما تحركت امي في الدولاب قال لي ابي
« اختر لك يدا ، وامرق بها وسط الناس ،
تحت المطر والشمس ، وامسح العرق عن جبينك ،
واحفظ فيها اللبن
واندفع انت وهي ، لا تخش الجدران ،
ان عيون الناس طرقات
وليس بين الموت والحياة
غير شجرة خضراء ،
لها شوك يدمي القلوب والايدي
ولها زهر على الشفاه والاثداء ،

الفلاح : (مدعيا) في المحل ، من هذا الشجر

الام : في الغرفة الضيقة ؟..

الحفار : لا ، لقد عين ابي مكانه ،
(يعود طفلا) ،
سبعة بحور عراض ، كل منها يخاض بطرف ،
بحر للعين ، وبحر لليدي
وبحر تخوضه بانفك ، وبحر تجرعه حتى يجف ..

الام : وبحر للعرق والشوك في الاقدام ..

الفلاح : وبقية الابحر ؟..

الحفار : وعندما نعبر الابحر نجد طريقا اخضر ،
قد زرع بالالوان والراحة ،

ولكنـا نقف ،
حتى تسقط الشمس علينا يدا ،
وقال لي ابـي ،
ليس في الحياة غير ان تنتظـر ،
ليس لك ان ترجو غير ان تنفجر نفسك ،
فاذا احسست بالمياه تسيل في داخلك
واحسست ان الحجر قد رق
وان النار في الهواء عمود ثابت
فليس لك ان تنتظر ،
لان اليد والشمس والشجرة الخضراء ...

الام : (صارخـة)
يا ربي ، اما زال في الحياة حياة ..
(تفر هاربة ناحية القرية)

الحفار : (تضيء عيونه)
ما اصدق ابـي ...
(للفلاح مسكنا من دهشته)
خل عنك ، اذاهب انـت

الفلاح : لا ... (مدهوشا)

الحفار : احقـا ،
عليك السـلام (ويخرج موغلا في المقبرة)

الفلاح : (لنفسه)
لا .. لا ..
ليس هـذا حشيشـا

ستـار

* * *

الفصل الثانـي

جانب من ساقية قـد القى عمودهـا على الارض بلا بقر وقطعة واسعـة خالية من ارض متربة الى جانبهـا وخلاء واسـع بعد ذلك فيه ظـلال من خضرة تظهـر عن بعـد وبعض ارتفـاع وانخفاض في الارض المحيطة تظهر خلالها قطـع متزايدة مـن الخضرة ، الابن الشاب في نفس الملابس وقد تلفع بشال وفتاة وجرة على الارض ومـا زال الوقت صباحا باكـرا فيالنسيـم وضوء الشمس . الفتاة تلبس جلبابا مشجرا بلون اسود واحمر وتعبث في يدهـا بحوايه وعلى رأسهـا وكتفيهـا غطاء للـرأس اسود خفيف ، في الفتاة سمرة وحمرة كماء الفيضان وامتلاء معتدل في الجسد وطول فارغ . ولها من تحت غطاء الـرأس ضفائر سوداء في اخرهـا شرائط حمر . في يدهـا سوار فضي وفي رجليهـا خلخال سميك .. الجرة على الارض مبللة الجوانب فيهـا ثقل الماء وميل الامتلاء .

الفتاة : نعم قـد آن ان اعـود .
الابن : ما زلت لا ادرك لمـاذا نبتعد عن القرية ،
ايـن صاحبتـك ؟
لقد حان الوقت كي اجد لنفسي مكانا
بين الموت والحيـاة
فـي القريـة .
الفتاة : لقد امتدت علينا الشمس
والماء في الجرة ساكـن ،
لنا زير كبير في الركـن
وقد فرغ الماء على وضوء ابـي ،
ان يده المرتعشة تعبث في الطشت
وامي العمياء تتحسس قدميـه
قد آن ان املأ الزيـر
فقـد كادت قطراتـه ان تجف ،

الابن : انا لا احب هذا الركن من بيتكـم
انه يقطر امك وأباك ونباح كلبكم
انا لا احب الا خوار بقري
وحركة الارانب فوق فرننـا
وانا اكره هذا الزير ان تخيلته بين ثدييـك
يقطر غربة ومناعـة
وكأني اراك عن بعد ، على جبـل .

الفتـاة : ولكنني لست بعيدة ،
لقد غسلت قدمي ووضعت على رأسي منديلي
واحسست خطوي اليك يهتز في بطنـي ،
لقد جئت الترعة كـي اراك ،
لقد خرجت من الحائط ومن ظهر ابـي
كـي اراك ،
كي اراك ،بلا اسم ولا حائط
كي اراك كما انا ، ليس لي غير قوام وخطو ، نعم ، ليس لي غيـر قوام وخطـو .
قد جئتك بلا قصد او وعي كفراشات الصباح
قد ملأت جوانبي ريح طيبـة
وانبسطت روحي على عطر كاوراق الزهور .
جئتك ..
ملء جسدي فخامة ، وفي اعضائي رخاوة الرضا والطبيعة .

الابن : (مقاطعـا)
ليس لي ان ابسط عليك ذراعي ،

الفتاة : احسه عليّ كقنوات الحقول .
وشعري يضيء في الرعاية كالقطن الجميل

الابن : لا .. اسكتـي ،
لا تبعدي الاشياء عمـا هي عليه ،
ان الحق والواقع يسقط من خيالـي ،
كجنـاح مكسـور .
انا ما زلت اجهد ان اصعد هذا الطريق
وما زلت على جهدك جرنا مغلوقا ،
قديمـا .
لقد قلت للحصول في نفسي ان يسعى
كالحيات على حجـر
وقلت للتخلص والتفرد وانانيتي ،
امسكوا عليّ جسدي وادفعـوا يدي وعيوني اليك .
ولكنني ما زلت اخشى ،
وادفىء نفسي بلا خبز ، كفـرن .

الفتاة : اتعرف ،
انا ما القمت الفرن رغيفا
الا واحسست نفسك على عنقي وفي شفتي

الابن : قلت لا تبعدي الاشياء عمـا هي عليه
انا لا احب ان احصل في عمق النفوس
او ان اخوض في المياه الآسنة
لقد قلت للبقال ان يثقل لي الحشيش ،
انا لا احب ، ان اشرب ، كي احلم ،

بل احب ان اصرع الجسد وان انتقم من خيالي ،
احب ان اميت الحلم وان ابيد العارض من المشاعر
اريد لو اقطع اليد ان تمتد الى شيء على ظلمه
وان امسح بالدم عينا ترسم في الجفون صورا
لقد اكتفيت من اصعادي على السلم
الى سطح البيت مع النجوم والسماء ،
لقد اكتفيت من حيرة الحلم
واشتاقت نفسي ان امسك الحجر ،
محمرا كالياقوت ، معذبا كالعيون الباكية ،
لقد اشتقت ان امسك وان اقبض ،
وان اخلق بمفردي الفصول وادوار المياه .

الفتاة : اتعرف انني حيرى ،
كلما جئت كالمياه المتسحبة
ارتفعت نفسك عني ،
واحسست انني آسن
وانني اركد بمفردي ،
فتغمض مشاعري واسأل نفسي ،
« أقد جئت حقا اليه »
لقد تعودت في طفولتي ان اجري وراء الطيور
وتعودت ان اخوض بساقي برعتنا ،
وتعودت ان اضرب الوز بالحصى ،
وان امسك الارانب من آذانها ،
ولم يكن بيني وبينها طريق ،
ولم اكن احلم او اتمنى ،
او احمل نفسي على معنى او شعور ،
ولما كبرت ونما جسدي في بيتنا
كالشجرة الغريبة ،
حسبت انني اكبر في حلمي ،
وانني اكبر كلما استطعت ان اقصد ،
كلما استطعت ان اعطي ،وانا احس عطائي ،
ولكنني استشعر كلما جاورتك ،
تحور القصد ، وضياع العطاء ،
وادى نفسي كالنخل المنسى ، بلا لقاح ،

الابن : اتحسبين انني لا اريدك ،

الفتاة : انا لا اعرف ماذا تريد ،
ولكنني اعرف انني انفعل لك
من بعيد ،
كصفحة السماء بعد الشمس .

الابن : انا لا احب الغروب ،

الفتاة : ولكنك تؤم البقال ،
وتجري وراء امك .
ولا تستطيع ان تفرقني في الجرة
وان تراني استحم ، لك .

الابن : لقد ارتفعت الشمس

الفتاة : اتريد ان تهرب مني ؟

الابن : اين صاحبتك ،
ما اطيبها !

الفتاة : انا احسها في مرضها الشنيع
ادرك لي ، واقرب مني ،

الابن : انا لا استطيع ان ادرك كيف تسير ،
بانفها المتآكل وشفتها المقطوعة ،
ان الكلام يقع من فمها
كاسنان متساقطة ،

الفتاة : ولكنها تنظر لي من عيون
كابار الشيخ ،
يتناوح فيها النخيل والصمت ،
هي تقطر من عيونها فهما
وكانها تصنع ما في نفسي ،
اتفهمني ،....
هي ، هي وحدها ،
آخر الارض ، وحدود الحقل
وقدرتي على الحياة والبقاء ،
والسلوك اليك .

الابن : انا لا احب الحدود والاطراف،
ولا افهم ان نلتقي بين بين ،
انا لا اعرف كيف تحتملين الزهرى
ولا اعرف ايضا ،
كيف اصل اليك ، بدونه .

الفتاة : اتعرف ما يعذبني ؟!..
لا .. اسمع ،
جاءتني ذات نهار وجلست عند قدمي ،
وقالت لي
« لو امشط شعرك ، او اغسل قدميك »
كان صوتها الضارع في عينيها
يتخلل شعري وساقي
ولقد جبنت ان اقول لها نعم ،
ولكنها قالت لي :
لا ، يجب الا المسك
ان يدي ونفسي اقبح من ان يمساك
ان لك يدا ، وان لك نفسا في رجل .
واحسست انني اتكاثف كشجر الجميز ،
وارتخى غصونا وثمرا .
لقد كللت نفسي بامكاني ،
وملأت روحي حديقة وزهرا ،
ولكني كلما ظللت في روحي ،
رايت زهري يرتوي من لعابها
وادركت ان حديقتي امكان ،
وقدرتها على الخلق واقع .

الابن : لقد اكتفيت من واقعي ومن امكانك ،
لم يعد في نفس الحشيش مد ،
لقد انطفأت الجمرات ،
كعين شريرة
ولا استطيع ان اشرب معك الحشيش ،
او ان اخلص فيك من امي ،
اقول لك ،
فالواقع ان المسالة بسيطة :

الفتاة : (مقاطعة)
البسيط انك تريدني زوجة ،
انك تود ان تستطيع ،
لو تغلق عليّ الجدران والظلمة ،
تود ان تخلص من جهدي لك ،
تحب لو تراك امك زوجا

لو تراك ابـاك .
ولكنـي اريـد ...
الابن : (مقاطعـا)

انا اريـد ان افرغ من شبابـي
ومن بطـلان حياتـي ،
وانا احس الحـب
كحزن امـسي
حماقـة ؟
لقد مـات ابـي ،
فلماذا لا تنجبيـن لي طفـلا ؟ ..

الفتاة : اتعرف ؟ لقد نفذت صاحبتي الي هذا
واضاءت بطني وملأت اثدائي لبنـا
ورأيتهـا تلاعب الطفـل
بشفاهها المتآكلة وعيونهـا الضارعـة ،
انها تملأ نفسي احلامـا
فاجيئك مثقلة كحما السبخ (وتضحك)

الابن : (يقترب منها في عنف)
لقد مللت كل هـذا
اعطيني قبلـة
اريد لو اعصر مللي ومرارتـي
وان اختم حديثنا بالقبلة الحرام
انا احس عبوري لنفسي في الحرام وحده .
املأ فيه تشنجي وغموض اغراضي وفشلي ،
وحيرة عيوني ويدي ،
وفراغ هذا الجسد والروح المنخوبه
(يتناولها في يديه ويقبلها على شفتيها ويداه على جسدها)

الفتاة : (في شفتيـه)
ما اشـد حيرتـي معـك ..
الابن : (مبتعدا عنهـا)

دعينـي افكـر
الفتاة : الن تعـود للقريـة ؟
الابن : لا ...
انا ادفن هنا شيئا واحس انه سيخرج .

(تقبل الفتاة الشوهاء عليهمـا

وتقف امامهما تنظر ولا تتكلم)

اكنت ترقبيننـا ؟
الشوهاء : (تشير براسها ان لا)
الابن : اكنـت تنتظريـن ؟
الشوهاء : (تشير براسهـا ان نعم)
الابن : وايـن كنـت ؟
الشوهاء : (تشير الى منخفض وراءهما يصعدمنه تراب عدو ونهيق حمار
وتشير الشوهاء الى جرة الفتاة لتساعدها على حملها ولكن الفتاة
تحملهـا وحدها وتنظر الـى الابـن)

الفتاة : الن تعـود للقريـة ؟
الابـن : لا ..
الشوهاء : (من شفتيها) الخير ان تعـود
الابن : الخير ان (مكررا وراءهـا ساهمـا)
ولكنني لن اعود (هامسا لنفسه)

وتسير الفتاة ووراءها الشوهاء ويعطينا الابن ظهره
ناظرا اليهمـا ورافعـا في يده خشبة الساقية)

ستـــار

* * *

الفصل الثالـث

بعـد سنـة

قاعة كبيرة نصف مظلمـة في طرفهـا من اليمين فرن وفي جانبه باب مفتوح على حوش وزريبة . والام تجلس امام باب الحوش الى جانب الفرن والى جانبهـا جوال كبيـر فيه قمح ومكيال وفي يدهـا منخل وفي الوسط فتحـة الى سلم ظهـر فيهـا السلم وبعض طاقات للحمام على جدار السلم ، ووراء المـرآة ابواب ثلاثة مغلقة ، ودخول الاشخاص وخروجهم من الامام من باب كبيـر لا يظهر منه الطريق والام والابن الى جانب الفـرن في آخر المسرح بعيديـن بالنسبة للقاعـة الواسعة ، فيها حمام واوانـي ووز .
الابن يتحرك الى جانب الام منفعلا وكان الحـديث بينهما قـد طـال .
الام : نعـم ،
نعـم قد خطوت هذه الخطـوات
وفعلت ذلـك ،
اما تعرف مسئوليتـي ؟ (تنخـل)
الابن : انا لا اجيد فهم الاحاجـي ،
ولكني انفجر كالثور الهائج
بلا رحمـة ولا عقـل ،
انفجـر ، واندفع وافتك بـك .
الام : ان القمح لا ينتهـي ،
وهذا الحصى كثيـر
الن تخـرج ؟
الابن : انا على وشك كل شيء ،
قد اعددت الادوات لكل شـيء
لقد لبست جلبابي ، وطرف محراثي مسنـون
ولي نار فـي الحجر
ولكنـي لن اتـزوج ولن اذرع
لا .. ولن اخـرج ..
وهل استطيع ان اتخطى العتبة ..
الام : كم احس انـك كبير ،
وانـك في غنـى عنـي
وانك وحدك ظـل وحساب
ما اقربك الى وحدتي واحساسي بنفسي ،
انا لا اذكرك الا كلمـا خطوت بمفردي ،
وحدي بعيدا عن الناس والعمل ،
بعيدا عـن العيـون ،
في ظلمة العمل العابر وفي اخـر النهار ،
في المصباح في الكوة ، في غلقة الباب ،
وانا اسحب الغطاء على جسدي ،
في آخر كـل شيء انت ،
عندمـا اقوم ، بعد جلسة طويلة ،
عندما تنفض من حولي النساء ،
عندمـا اسمع شخيره الى جانبي ..
الابن : نعم ، بعد ان ياكل زوجك وينام ،
لقد اصبحت انا بقيـة ،
كروث البهائم وذرب الحمام ،

امسح واجمع واذكر
في آخر كل شيء ،
له الحمام والثور وطعام الصباح ،
ولي اواخر الليل والذكرى وتانيب الضمير ،
والعشاء البارد في غرفتي ..

الام : (مؤمنة براسها)
انظر ، كم انا مخلصة ..
الابن : الا يسود هذا الضوء ،
لقد ارتد عليك شبابك
واصبح لك غنج وحديث دافيء من الشفاه .
الام : انا اخجل منك (في تصابي معترف)
الابن : وتخجلين مني (مستمرا مكررا)
وتنفضين على شعورك
كانتفاضة الوز بعد الماء .
لقد جفت بنوتي على جناحيك
وثقلت اقدامي بالحديد
لا ، لا استطيع ان اخرج ..
ان اتخطى العتبة ...
لقد خرج هو ، وما زال في البيت نفسه .
ان تجشاه الكريه يكتم صدري ويخنقني ،
لقد خرج هو ، وتركني مسجونا في رائحته .

(يخطو ويعود ناحية الباب)

الام : اتعرف انك تؤلمني ،
لقد سالتك ، ورايتك تدفعني ،
اتذكر ، لقد قلت لي « يا امي ،
بعد حين ساتزوج ، وانت ما زلت صغيرة ،
وقد يساعدني في الحقل ، وله مال وارض ،
وهو قريبنا ،
لقد قلت لي ذلك ، وجئتني حانيا عاطفا ،
يا امي ان حزنك يقتل روحي،
وزواجك يرجعنا كما كنا ، سعداء مشغولين .
الم تقل ذلك ..
الابن : كنت احمق ، مخدوعا عن نفسي ، مشغولا باحلامي ،
وكنت خرقاء مجنونة
قد نصبت لي دوامة ..
(مفكرا) .... وقد نصحني الرجال ان اقبل .
الام : لا ، لم يكونوا الرجال ،
كنت تريد ان تخلص مني ،
ان تبيعني بحزني لرجل آخر ،
كنت بقرة مريضة فبعتني للجزار ،
لا لم يكونوا الرجال ...
انا اعرف هذه البنت ، واعرف خوفك من المسئولية ،
ولم تكن تقدر ان تتزوج فزوجتني انا ،
ومع ذلك (معترفة) فانا اعرف انني قد اخطات .
الابن : (متهكما) ما اجمل شعورك لي ..

الام : اخطات ... (وتضع المنخل)
اخطات خطا الخطوة ،
اخطات خطا العين ،
اخطات خطا اليد والنفس ...

(يخرج مسرعا وكانما يخلص من اسر)
(وتظل تنخل وهي تبكي وتندب)

ياربي ليس فيما يرد ما فعلت ،
ايارب ، ما كان ، ليس لي فيه يد ،
يا ربي انت ادرى بالخطوات ،
وانت ادرى بهذا الجسد ..
لقد نال ما نال ، وما حصل لنفسه على شيء .
يا ربي ...

(تدخل الجارة ١)

الجارة١ : آه اتبكين اذن ،
انا ما زلت احسبك عروسا ،
قد رق لها الوجود ، واستراحت لها الطرقات ،
انك ما زلت عروسا ،
لك نضارة الاقدام والدخول ،
واحساس الطير بالعودة
لم تبكين ،
قد جعلتني اذكر العذارى وعيدان القطن الجاف .

الام : اجلسي ،
ان دخولك عليّ كحدة الشمس على الماء الآسن ،
انا ما زال يلعب في روحي فلق كصغار الضفادع ،
فاذا ما انفردت بنفسي ،
رايت التماسيح وغيلان الماء ،
اانا عروس ،
عروس بلا راس ولا ذنب ،
حزينة كدمى الطين ،
بلا وجه ولا تعبير ،
قد كومتني الاطفال ولي على كل جانب يد
وموضع لاصبع .
انا مجروحة مجمدة ،
ولكني عروس .
عروس ...
الجارة١ : ولكنه رجل طيب قوي رحيم ،
قد تناولك بيد كريمة ،
اما تسمعين صراخي كل ليلة ،
ان رجلي يضربني ،
وما اغرب ان اقول لك ،
اريد لو احس هنائي عندك .

الام : عيوني عليك باردة (في يأس)
حقا انك جارة .
يجاورني بيتك ووجودك ،
ويظل بيننا حائط ،
اسمع صراخك في الليل ، فتنفجر في ذهني شرارات من نار
واخلط بين الجنة والنار ، ولا اميز بينهما صراطا
وانت ، تدخلين عليّ وانا ابكي ،
فتقعين عليّ كما تقعين على بئر
وتساليني وكانني ظلك ،
ولكني يا اختي ابكي ، ابكي بمفردي
ليس لي معنى ، وليس لي جواب ،
قد دفعت الى حدود الجسد بلا جسد ،
ومزجت بين ابني وزوجي ،
وخطوت على الحزن والقبر الى فراش جاف ،
بلا ثدي ولا لبن ،
قد صوّح فيه النخل وتقصفت فيه العيدان ،

انا ارعى وحدي العيون في النار ،
واليد المملوءة بالدموع ،
انظري كفي وصدري وعيوني .
هذا ابني قد نسيت عناء جسدي فيه ،
ولكني اجفل كلما ادركت انه لحمي ،
وروحي واعماق نفسي وتراكم السنين في صدري
قد طواها القبر وهذا الزوج الراحل ،
وما زلت كما زال الناس ، حية يرعاني رجل ،
وينتشم جسدي كما تنتشم الاعشاب الخراف .
لقد توترت حياتي فلا اكاد احس لها نبضا
وتكدست مشاعري فلا اميز فيها نورا ولا قناة ،

الجارة١ : اسمعي ، لقد عرفت مع زوجي شيئا جليلا ،
كان يضربني ويملكني وتترامى حولنا الاطفال .
ولكني احس ارتكازي وراحة السر في زوجي ،
لقد مد لي زوجي قناة فالقيت بنفسي فيها ،
واطمأنت حياتي للجسور
لقد تعلمت الا اعلو على نفسي
وعرفت ان صلتي بزوجي وجدران بيتي ،
هي الاصل في شعوري والقدم والزمان في وجودي ،
ان بهجة الروح ان تجد لنفسها علة ،
واثبت ما في الوجود من علة ،
هو صدر الزوج وفم الطفل ،
نحن يا اختي كالنحل وكالنمل ،
لنا حياة ولنا دور ،
وليس لحياتنا موت ، لان لنا دورا ،
وليس لدورنا حياة لاننا نقف بارجلنا
في الموت
نحن ،
نحن يا اختي نساء
اذا رفعنا رؤوسنا ، اكلنا الرجال بلا رعاية ،
واذا استقلت نفوسنا اصبحت اجسادنا غريبة ،
كالاراضي البور ،
ملؤها الاعشاب والشوك والصقور ،
وماذا نكسب نحن النساء ان خسرنا هذا الجسد ،
ادفعي صدرك لطفلك
واقبلي على الرجل ،
تنفر الزهور في روحك كجنة تسر الناظرين .. (وتضحك)
(وتضيف جادة)
ان هذا شيء جليل .

(يدخل الحفار طيبا قويا رحيما فتتحجب
الجارة ويمرق الرجل الى السلم الى اعلى ،
بعد ان يقول)

الحفار : السلام عليكم
(فتتمتم المرأتان الرد دون ان يسمع ويصعد
فتتقدم الجارة من جديد دون ان ترفع حجابها
وتكوم الام بعض القمح في الغربال)

الام : اقول لك الحق يا اختي ،
انا احس انه سلام ،
وان احترامي له كالخوف
يبعث في نفسي جدا وجهدا ونشاطا ،
اما ما ياكل روحي فتكثر الرجال فيها
فلكل فهم حضور ، ولكل فهم ساعة ،
ولكل فهم في روحي قاعة
لها مصباح ولها باب .

الجارة : ان من يتكثر هو نحن النساء
اما هم ، فهم هم دائما ، لا يتكثرون .
نحن اللحم والدم ورغبات نفوسهم ،
اما هم فكل نفوسنا وحدود قوانا ،
ان كلا منهم ينهب من نفوسنا قطعة
ولن نسترد ما نملك حتى نراها
في يد كل منهم ، ملكه ،
اتعرفين ، كلما كبر اطفالي وابتعدوا عني
احسست انني ارتفع كما ترتفع الشمس عليهم
وكلما ضربني الرجل وسبني
احسست انني احيطه كسوار الحقل .
نحن نتكثر ونتشكل ونتعدد
اما هم ، فهم هم دائما كاصابع ايدينا .

الام : ان حديثك (في انوثة فائضة)
ينسرب على جسدي كالعرق ودم القمر .
واحس انني كالدنيا لي حدود في وجودي
وليس لحق الناس في حدود .

الجارة : (تضحك فاهمة)
قد آن الان ان اقوم ،
وان اسري كالمياه ،
اعد الطعام واحمله لزوجي ،
(تقبلها وتخرج في بطء وهي تنظر اليها
وتنشغل الام في نخل القمح في سرور مدة ،ثم
تقول لنفسها)

الام : يا ظل انفاسي في الرجل ،
يا ملء احساسي بالرجل ،
(وتكيل القمح وتضعه في المنخل وتنخل)

ستار

* * *

الفصل الرابع

قاعة مظلمة منخفضة وراء محل البقال لها نافذة صغيرة عليها قضبان حديد يظهر وراءها ميزان كبير . والقاعة مضاءة بمصباح بترولي كبير والرجال جلوس على الارض وفي يد البقال جوزة كبيرة يمررها عليهم ، والجو مليء بالدخان وبعض اذرع او ارجل عارية من راحة الجلسة وفي الغرفة اكثر من شخصيات الفصل ، رجال صامتون لا يتكلمون .. على الارض بندقية الى جانب السفاك الاشعث ومرتبة مفروشة وراء البقال ودولاب قديم مغلق وراء الرجال .

البقال : (للابن في جانبه)
لقد قلت للرجل ان يأتي ، ولم احدثه
فعليك ان تفاتحه انت
ودع لي امر المال .

الابن : افاتحه ؟

البقال : نعم ،قل له ، انه رجل بسيط ،
قد اعتاد ان يغمض عيونه وفمه ،
فنما الشعر في صدره واصبحت يده حرة كسكين .

الابن : لقد تعودت ان اراه،ولقد سمعت طلقاته ،
وانا اعرفه (يشتجر الحوار ويتحرد المستمع)
ولا اخشاه لنفسي
وافزع منه في يـدي
رجل١ : اتعرف حقول المصرف
اغلت طيبـا هـذا العام ،
رجل٢ : لقد خدموها جيدا ،
انقل لي الجوزة (ياخذهـا من البقال وينقلها له)
رجل٣ : نحـن في حاجة الى نار وشيء في معدتنا

(يتحرك البقـال)

البقال : (لرجل ٣) اصفق بيديك .
(للابن) ولكنك اردت والححت
وانا اخشى عليك الفـل ،
ان المراة والانتقـام ،
اضر شيء على الجسـد
رجل١ : لا يضر ولا ينفع الا الله ، اذكروا الله
السفاك : (بصوت عال وكلهم وراءه) لا اله الا الله .

(تدخل فتاة تحمل طعامـا فيتناوله احدهم وتخرج الصغيرة تتعثـر)

الابن : (للبقال) ان عزمي نفذ من حلقي ،
اليس افضل ان اقرا الفاتحـة ،
انا خائف على نفسي لا استطيع ان اعبر ما فعلت ،
رجل٣ : اتعرفون ان البحار سرق خشبا للمهندس ،
من الجسر المهدود .
الابن : وان تخرج قواي مع الرصاصة فلا ترد ،
وانا اعرف الحرام ، فلقد خبرت نفسي فيه ،
رجل٢ : (لرجل ٣) يا سيدي ، ان الحرام يملأ البلد ،
الابن : انـه ياكل في جلدي كجرب
فاذا حككته اشتعـل ومرضت ،
انا اريد فقط ان ارى نفسي
وان استطيـع ان افعـل
رجل١ : لقد ضربت رأسي حيلـة ،
ولقد آن الاوان ان نعمـل ،
حقا ان فيها شيئا من الحشيش
ولكنا سنجعل المهندس يشربهـا
الابن : فلاكن اكثر اخلاصا لنفسي
واحكـي لـك ،
انت اكبر مني سنا واكثر فهمـا ،
ولكني ساحكي لك عـن روحـي
ثم انصحني او امرنـي .
البقال : (يصمت ويسمع بتؤده)
رجل٢ : (لرجل ١) وما هي الحيلة ، قل لي .
رجل١ : ان المهندس يصنع من الخشب فراشا ،
الابـن : لقد رأيت امي بعد وفاة ابي كالمجنونة ،
لا يضمهـا فراش ،
رجل١ : (لرجل ٢) فالقول ان نذهب الى البحار ،
فنزوجـه ،
الابن : واحسست انها تربطنـي ،
فلا استطيع ان اتـزوج
رجل١ : وقد عرفت ان البحار يحب ..
الابن : (للبقال) اتسمعنـي

البقال : (يهز راسـه)
رجل٢ : (مقاطعا) نعم اعرفهـا
الابـن : وكنت احب هـذه الفتـاة ،
البقال : نعم اعرفهـا ..
الابـن : كم اتعثر في حديثي ، كمـا اتعثر في حياتي
البقال : انا احس كان هذا آخر حديثك .
رجل٢ : اهذه كـل الحيلـة
الابـن : لا ... اسمعنـي

انت لا تستطيع ان تقبر احـدا ،
حتى تشرف من عل على كل القريـة ،
وما يشرف على القرية الا شيخنـا ،
وقد مـات
اما انا فاريد ان احيا وان اصنع بيتـا
وان اسلك « كما اريد » في طرقاتنا
خفيفـة ،
ان مقتله سيفصلنـي ، انا وامي ،
وانا اخشى هذه المرآة ،
ليس فـي المرآة طرقـات ،
وليس في الحياة الا بعد الوجه واختفاؤه
نعم انا اعرف هـذا ،
لقد عرفت آخـر الامر
ان شقوتـي في جسدي .
كلمـا احسست بنفسي ضاق ،
وكلمـا احسست بيدي تشنجت ،
وكلمـا احسست بقلبـي عجزت ان اتـزوج .
ان هذا السفاك نور اضاء حريتي
وليس عليّ الا ان اتجنبـه ،
افاتحه ، لا ،
لقد فتح لي بابا من النسيـان وضيعـة الظل
بابا لا يخطو فيه المرء ولا يريـد ،
بل يتحرك لان الاشياء في اماكنهـا ،
اتعرف يا عمي حـلاوة السكـون
في الاشيـاء ،
امي في الغرفـة مـع زوجهـا ،
وامراتـي مـع الصنـدوق

تنتظر ان احملها .
وانا هنا مع السفاك ،
لا .... لن افاتحـه ،
ولن اعـود اليـك .
البقال : انـا لا استطيع ان ازيد القول والفعل
ولا استطيع ان ادلك على حياتـك
لقد جلبت لك السفاك
ووفرت لـك الحشيش
فافعل او قـل .
ان امور الحياة يا بنـي
اخفى من السمك فـي الترع ،
وكل من صبره آكـل ،
اما انا او انـت
فلن نستطيع ان نضع شيئـا مكانـه
كل شـيء في مكانـه
حتى تصل اليـه ،

وكل شيء غائب ضائع ،
ما دمنا في الطريق
نسأل الناس ونعتلي الركائب
يا بني ، اذا قلت لك اشرب
عليك ان ترفض النصيحة ،
وان تعبر جثتي الثقيلة ،
انا هو الناس إوكلام الناس
وانت ، انت هو الحق
والحياة
وانت انت وحدك

انت الطريق .

(الابن يطرق ورجل ١ يطرق ويشرب)

رجل١ : لا .. اسمع ،
هذا البحار يعرف المياه جيدا ،
وقد اعتاد جفاف ريقه وهو يغرق
ارضنا بالمياه .
فلندفع له ببعض الماء ،
ولنسرق له الخشب ،
ان هذا الجسر يصلح لبيته .
والمفزع ان يعود الحرام للمهندس
دعوه يعود لنا
فلنقبل في الليل في خفة القط ،
لنحمل الخشب ولنبن للرجل بيتا ،
وعندما يتزوج ،
اندعو المهندس
لا ، لن ندعو المهندس ،
فلقد عرفت آخر الامر
ان هؤلاء الاشخاص على المكاتب
يقصدون بنا الشر
ويرسمونه على الخرائط
لقد قصدوا ذلك
والافضل ان ننساهم
حتى نعيد لقرانا وحدة انخفاضها ،
وحتى نلتقي جميعا
في ابارنا ونخيلنا ،
حول بكارة نسائنا ،
لقد حركوا الاشياء من اماكنها
واصابوا ارواحنا بالعطل ،
كالجسر المهدود ،
انا وانت في القرية
والبحار مع زوجته
والخشب على ظهورنا نقول
الا نكلم البحار
الا نذهب اليه

رجل٢ :
لقد قلت ما احسه الحق ،
ولكني لا استطيع ان اتحرك لك ،
انا ان شربت الحشيش ،
اصبح لكل قول حق
واصبحت كل ارضي
مليئة بالقمح والبيوت ،
ولكني ادفع نفسي الى اعلى ،
فلا احس غير يقظة النخيل ،
وهذه الاصابع الغريبة ،
التي تلمس ما اخلق ،
وكان بعده وتطلعي ،
هما كل ما له من صدق ،
يا اخي ،
ان اردنا ان نهدم المكاتب
فلنشرب الحشيش . فما دمنا في الطريق
فلن تقف لنا حماسة ،
اما ان نصل ،
وان نحمل
فانظر ، ليس لي ظهر ،
وليس لي يد ،
انت ، انت وحدك
انت تحلم ايضا ..

السفاك : (عاليا عليهم جميعا)
اسمعوا ، نعم اسمعوا
الحق اقول لكم لانني هو الحق وآخر ما فيالحياة من فطرات ،
لقد نال اليأس من كل نفس، ونفسي كما هي من غير يأس ،
انا آخر ما في النفوس من عزم ،
تتشنج لي النفوس فتنبسط قبضتي ،
قد حصلت على حريتي اذ بعتها للناس ،
انت (للابن) وانت (لرجل ١)
وانت ، وانت ، وانت
نعم اسمعوا ، كل ما في الحياة من انت ،
اذا انقبضت نفوسكم وتعقدت عليكم الطرقات ،
فانا اعرف من اين كل مكان ،
وانا اعرف حيث تجمد النفوس وتنتهي الكلمات ،
ففي يدي القوس ، وقوس من العيون والرغبات .
وفي يدي عزم ، هو ظلمة اللحظات ،
وتحجر الماقي ، وقسوة الكبت
وسكتة الغيظ ورجفة الروح واجفالة العزم ،
انا هو كل ما فيك ان اسود جسدك بالوعى ،
وارتفعت عليك حياتك ،
اقبلوا ، اقبلوا يا حزانى يا مكلومين
فانا هو العزاء
وراحة الوتر .

(يخرج كل من في الغرفة بعد الابن ويبقى البقال والسفاك وفي وحدتهما يحتضنان)

ستار

مانشستر ١٩٤٨